«الأشجار تموت واقفة»

قسمة من مايا كوفسكي

بقلم عبد الرحمن الخميسي

يعتبر معين بسيسو من أخصب شعراء هذه الحقبة انتاجا ، فقد صدر له حتى اليوم ستة دواوين من الشعر هي على التوالي : المعركة ، وقصائد مصرية ، ومارد من السنابل ، والاردن على الصليب ، وفلسطين في القلب ، والاشجار تموت واقفة ، وهو موضوع هذا الحديث .

ولعل من مصادر تلك الخصوبة الفنية ، ان الشاعر نفسه ينبع من مأساة فياضة بالعواطف ، زخارة بالعواصف ، فهو ابن بار لفلسطين المحتلة ، ما كاد يبلغ عمر الشباب ، حتى شهد وطنه تدوس شبابه أقدام المغتصبين ، ومعين هو هو ، حساسية شعور ، والهام نفس ، وعزيمة عمل .

كان معين في ميعة صباه ، حين وقعت الكارثة التي أجلت عن الارض اصحاب الارض ، ولكنها لم تستطع ان تقتلع من نفس الشاعر الحساس وعفله ، صورة الوطن ولا فكرته ، بل أججت عاطفته ، وألهبت خياله ، وعمقت وجدانه الفني ، وربطه بالوجدان القومي العام ، ليصبح أنقى وأصدق وأقدر مزمار ، ينفخ فيه قلبه الحر أروع الالحان الفلسطينية .

وقارىء معين بسيسو ، اذا هو أمعن النظر في أعماله الشعرية ، تبين له ، على ضوء تطور تلك الاعمال واحدا بعد الاخر ، بالرغم من وضوح النفس الشعري فيها جميعا ، وبالرغم من انتظامها بالصور الفنية ، وتدفق السيال العاطفي من خلف أبياتها في كافة الدواوين ، ان معين بسيسو ، قد تطور ايضا ، كفنان نابع من المأساة الفلسطينية ، الى فنان ملتزم لا بقضية وطنه السليب فحسب ، ولكن بكل القضايا المرتبطة بمسائل الحرية والسلام العالمي .

لقد تولد الالتزام عند معين بسيسو بصورته العامة ، من التزام الشاعر بمسألة فلسطين . بل ان ارتباط الشاعر بموضوع وطنه المحتل ، كان أساسا فيما بعد ، لفكرية الشاعر ، واستطاعت التجربة الانسانية لديه ، أن تعمق التزامه ، وأن تبني له نافذة وزاوية يطل منهما الى الحياة ، فتألفت له وجهة النظر التي تقف الى جانب الحق ضد الباطل ، والى جانب العدل ضد الظلم ، والى جانب الحرية ضد الاستبداد والقهر ، والى جانب بناة الحياة ضد أعداء الحياة .

حدث في روسيا القيصرية ، أن ألقي القبض على الشاعر الانساني الكبير الكسندر بوشكين ، ونفي الى خارج الحياة .. ثم شهدت روسيا القيصرية حركة الديسمبريين ، فقاومتها أدوات القيصر وأجهزة حكمه ، وتمكنت من قمعها بشدة .. وقد ارتفعت في المحافل الادبية حينذاك ، أصوات عديدة تطالب باعادة بوشكين من المنفى الى الحياة .. ولم يكن القيصر يحب ان يستجيب لتلك الاصوات .. لم يكن يود ان يطلق سراح الشاعر الانساني الكبير ، لولا ان الضغط على مسألة بوشكين ، كان واضحا وآتيا من جهات مختلفة ، ويشكل في الرأي العام قوة ، من مصلحة القيصر أن يتظاهر بالتجاوب معها .. لذلك ، أفرج القيصر عن بوشكين ، واستدعاه الى قصره ، وسأله عن موقفه من الديسمبريين لو انه كان حرا في بطرسبورج حينما رفعوا راية العصيان .

وأجاب بوشكين في شجاعة منقطعة النظير ودون أن يخالجه أقل التردد : ـ كنت سأقف الى جانبهم ..

هذا الموقف لبوشكين ، هو موقف الشجرة التي تموت واقفة ..

استمع الى معين بسيسو يقول :

كاله من غير يدين
تتبعني يا وطني وغراب البين
يعرج قدامي ويصيح الى أين ؟
يا طالب رأس القيصر يا حافي القدمين !

●

وموقف معين بسيسو ، يؤكد ان التزامه ليس عبئا على الثورة ، ولكنه يقطع بأنه التزام يخصب الثورة وفكرها وفنها ، ويثري أحلامها ، ويفتح امامها الطرق ، كما يفتح عليها نوافذ الشمس .

كذلك ، فليس موقفه تابعا بقدر ما هو موقف رائد ، يستلهم الثورة ، فتلهمه ، فيصوغ أشعاره ، تنبض فيها ملامحه الخاصة ، في اطار الرسالة العامة للشاعر الملتزم .

وقد قسم الشاعر ديوانه الاشجار تموت واقفة ، الى ثلاث كراسات . وقد ضمن الكراسة الاولى فلسطين كما يحسها ، ويحبها ، ويجلوها في صور شعرية تتميز بالصدق وبجدة الابتكار الفني ... نحن امام شاعر كبير يقدم لنا من خلال مشاعره وقدرته الفنية وصدقه ، فلسطين وأرضها وأحلام أهلها ، كما لم يقدم شاعر من قبل .

يافا ببطن الحوت ما زالت يجوب بها البحار
الحوت تاه ..
من ذا يدل الحوت يا طفلي
ويطويه العباب ؟
من ذا يعلق في رفاب
هذي الذئاب السود أجراسا ويطمع في الاياب ؟!!

●

ووسيلة الشاعر القادر هنا ، هي الصورة كما نرى ، بل اكثر من ذلك ، هي العمل على اطلاق العبير من الصورة بعد رسمها ، حتى ليهتز القلب ويفرورق الخيال بالفيوم تخلق لدى القارىء حالة « العدوى » كما يقول تولستوي بالجو المراد تصويره ، ونقله الى النفس والعقل . العبير الباطني في العمل الفني عامة ، وفي الشعر بصورة خاصة ، هو سمة ظاهرة تفرق عملا من عمل ، فتولى القصيدة بقدر ما يشيع منها العبير ، حقها من الاستمرار أو التوقف ، من الحياة او الموت .

ونحن كثيرا ما نطالع قصائد ينعدم منها ذلك العبير ، كالوردة المصنوعة من الورق المقوى ! ولكن شعر معين بسيسو ، يمثل النقيض ، فهو البذرة تحتضنها الارض ، ويسقيها الماء فتترعرع ، وتمنحها شمس الحقيقة شعاع النماء ، فتكبر ، وتخضر ، وتزهر ، وتتفتح ، وتفوح !..

كبرت في القفص الاشبال
والغابة تحت بساط الشاه
الكأس الاولى : آه

●

ويستطيع من يتتبع شعر النكبة ، أن يلحظ ظاهرة واضحة ، هي أن أغلب ذلك الشعر ، يتجه الى بكاء الماضي ، فهو يذكر ما كان ، ويندب سوء الحظ ، ويرثي حياة كانت ! وأصحاب هذا الشعر صادقون فيما ينظمون ، يعكسون شعورا حقيقيا ، ويصورونه .

ولكن معين بسيسو يختلف عن هؤلاء الشعراء ، في موقفه .. انه يجعل من الدمعة قطرة سائلة من نار ، ويتخذ من الحزن دافعا للوثبة المقبلة ، ويمزق الظلمة عن فجر مشرق .

ناري بلا لهب
ونجمتي بلا ذنب
وحدوة الحصان كل ما كنزت
لا تغب
يا ايها العصفور في السحب
ما زلت فوق نعشك الملعون أنتحب
وكيف هذه الاوزة الخشب
تعطي لمن ينوح
بيضة من الذهب ؟

●

ويذكرني معين بسيسو بالشاعر مایاكوفسكي الذي كان يلقي قصائده في محافل العمال ، وفي ندوات المصانع ، ويتجه بقصائده الى الناس العاديين .. ان معين هو الاخر ، يستلهم شعره من الناس والحياة والاحداث المتباينة ، وهو يذهب بقصائده الى أبناء فلسطين خاصة ، والى الرأي العام العالمي بصورة عامة .. انه يلقي قصائده في المحافل ، يصور النكبة ، ويجسم نتائجها ، ويستنهض الهمم ، ويجسد ضياع الذين فقدوا وطنهم العزيز .

وللشاعر مایاكوفسكي قصيدة شهيرة عن جواز سفره . ولمعين بسيسو ايضا قصيدة هامة في ديوانه حديث اليوم ، عن جواز سفره كذلك . وبالرغم من ان الظروف مختلفة في الحالتين ، فاني أرى قسمة مایاكوفسكي في وجه معين .. استمع اليه يقول :

للسائح العجوز ، للطاووس
للمهرب السعيد
نوافذ القطار ، صولجان البحر
ريشة العنقاء للامير
شباك هذه الارض بابها
بطاقة المرور
يا هذه الاخشاب سندت
يا هذه الحدود
طرقت باب من أحب
ردني ناطور بيته الشرير

وتتضمن الكراسة الثانية من الديوان نماذج مقابلة في الشعر العربي . فقد صور الشاعر من وجهة نظره البانية ، زوايا ايجابية عند أبي ذر الغفاري ، وعبد الله بن المقفع ، وعمار بن ياسر .

ولم يقف الشاعر موقف العارض الفوتوغرافي لصورة التقطها بآلة تصويره ، ولكنه كما يفعل الفنان الملهم الملتزم ، يرسم بريشة زيتية تلك النواحي الايجابية عند اولئك ، ويربط تلك اللوحات برموز تصلها الى هذا العصر ، فتوحي بنبل الحق .. كأن أبا ذر الغفاري ، يعود الى عصرنا ، فيشهر من خلال قصيدة معين بسيسو اتهامه لهذه الحقبة من الزمن !

وسار وحده ومات وحده وعاد
يصيح مت لم تزل
بقية من الكلام في فمي
نفيت مرتين : مرة هنا
ومرة هناك في الحدائق المعلقة
وعدت يا معاوية
ألقي بشعرة الذئاب
في مغازل العناكب المشردة
. . . . . .
بلال لم يزل مؤذنا
في ثقب ابرة بلال
ولم يزل عثمان
يداه تقطعان أرض الله
وهو خاشع يرتل القرآن

●

كأني أرى أبا ذر الغفاري يتهم في هذا العصر ، أولئك الذين يسلبون من الاشياء لبابها الحي ، ويلقون بها الى الطريق مصاصات فقدت عصير الحياة ، حتى يطلق صيحته الاخيرة :

لو تهتدي الي أيها الصديق
والذئب في الظلام نجمة
تنور الطريق ...

●

ويرسم معين بسيسو ، بعد ذلك ، صورة لاحلام عبد الله بن المقفع، فيقول :

وشيت بي قتلتني
وكنت شاهدا علي في بلاد « دبشليم »
وكنت صاحبي القديم !
الى أن يقول :
قتلت حين قلت للاسد
تموت ايها الملك
تموت حين تسقط اليمامة الزرقاء في الشرك

وتنفجر الصيحة بعد ذلك ، فيضيف الشاعر على لسان ابن المقفع :

معذرة مولاي اننا بشر
ننوح كالحمام نلبس السواد
ثم يطلع القمر
ويملأ الزئير من جديد قلبنا
ويسقط المطر ....

وهنا ، في رؤيا معين بسيسو ، يقف عبد الله بن المقفع الجديد ، في مواجهة المكارثية في الفن والادب ، حيث تنتصر الحياة على الوحوش !

وفي قصيدة « أغنية على النطع » ، يشرق موقف الشاعر الملتزم من أعداء الانسان أعداء الحياة الذين يريدون الشاعر ببغاء في قفص ! ويقول معين في قصيدته ، وهو يحمل نطعه على كتفيه ، ووسادته السيف :

منذ ألقيت على طاووسك الاعرج
حبري

المرأة ينبوع الفنون

يقول اصحاب الخبرة ان المرأة مبعث وحي للمتفوقين في الفنون الجميلة ، ولا سيما الشعر ، والموسيقى ، والتصوير . فهل يصدق هذا الرأي في حياة الموسيقار العبقري فاغنر ؟

هذا ما حاول الاديب اللبناني جورج جرداق شرحه في كتاب قيم عالج فيه نمو الحب في نفس فاغنر من « طفولة العاطفة » الى شيخوختها .

وفي الكتاب طائفة من الرسائل والحوادث المدهشة ، والتشرد الذي ينتج بدائع الفن ، فاطلبه من « **دار المكشوف** » ، بيروت ، ص.ب. ٥٨١ ، تلفون ٢٢٤٧٧٠ ، تجد فيه ما تصبو اليه نفسك من الادب ، والدرس ، والاستنتاج القائم على الحقائق المستمدة من صلب الحياة .

منذ لم أكتب بماء الورد شعري
لجواريك ولم ألهث
بأوزاني من قصر لقصر ..
ونديمي السيف
نطعي تحت رأسي

●

أما عمار بن ياسر ، فان معين بسيسو يبلغ موقفه في قصيدته عنه ذروة من الالتزام ، ويربط بين الكلمة والموقف ، بين عماربن ياسر القديم ، وكل عمار بن ياسر جديد ، يقف ضد الصنمية في الادب والحياة على السواء .

لقد أضرم كفار الماضي نارا كي تحرق عمار بن ياسر القديم .. واليوم يحدث العكس ، فيضرم الشعب نارا جديدة ، لا لتأكل كل عمار جديد ، ولكن لتقف الى جانبه ، وتحرق أعداءه .. وفي هذا ، يقول معين بسيسو :

فكليه وهو في أقماطه
هذا الحجر ..
قبل ان يحبو وأن ينمو
وأن يغدو صنم !

●

أما الكراسة الثالثة والاخيرة في هذا الديوان ، فيخصصها معين بسيسو لمواجهة وكشف الزائفين من الفنانين والشعراء . وكما لا تستطيع قوة أن تزيف وجه بطل ، فكذلك لا تستطيع قوة ان تزيف وجه شاعر ، فالبطل والشاعر توأمان على حد قول جورج أمادو

ويقول معين في احدى قصائد هذه الكراسة مخاطبا بوشكين :

لو عشت في بلاط عصرنا في هذه الايام
حيث الارانب العرجاء
تركب الافيال
وترتمي العنقاء في قفص
وتكتب الاسماك والحيات
أجمل الاشعار والقصص !
لجاء أصلع الجناح
من بطانة الامير
مبارزا
واشهرت في وجهك السلاحف الرماح

ويشهر معين بسيسو في وجوه أولئك الذين يبيعون الكلمة في أسواق النخاسة ، نورا كاشفا فاضحا يمزق أقنعتهم ويسقطها عن وجوههم ، فيقول :

يا أبا الطيب خصيان السلاطين وغلمان القياصر
كل ذي قرط وخلخال
وعقد وأساور
كلمن قد شده النخاس
من وحل الضفائر
كل من لطخ بالحبر الاظافر
جاءنا يركب صهوات القصائد

الى ان يقول :

صار درع الفارس المقتول
بيتا للعناكب !
آه يا سيف المحارب !

***

لعلني في هذا الحديث العاجل ، قد استطعت أن ألقي بعض الضوء على جوانب من شعر معين بسيسو في ديوانه الاخير الاشجار تموت واقفة .

القاهرة

عبد الرحمن الخميسي

ليس في الأمر بطولة

سأقاتل
ابدا ما دام في الارض سجون وسلاسل
وشرور ومهازل ..
سوف ابقى في خطوط النار ما دمت قويا
وسلاحي في يديا ...
ربما لن اشهد النصر ، ولن اجني الثمار
ربما ارقد في بعض القفار
ضائع الاثار ، منسيا كآلاف الجنود
ليس لي قبر يزار
وتغطيه الاكاليل وهالات الخلود ! ..
ربما ينكرني حتى رفاقي في الجهاد
ولعلي سأتوج
بدل الغار بعوسج
غير اني سوف ابقى في جحيم المعركه
ويدي فوق الزناد
كابحا جوعي وصيحات جراحي المهلكه ! ...
سأقاتل
دون ان احفل ان الموت ماثل
واللظى يحرق ، والالغام قربي تتفجر
ورفاقي مزق شوهاء حولي تتبعثر ! ..
الأني بطل ؟!
لا ، ليس في الامر بطوله
انما جئت فألفيت بنودا ومشاعل
وملايين تناضل
بتفان ورجوله
في سبيل الخبز والسلم واحلام الطفوله
فاذا قلبي تدوي فيه اشواق الكفاح
واذا بي ، ها هنا ، بين رفاقي في السلاح
رابضا خلف المتاريس اقاتل ...

رشيد ياسين